

آفاق التربية الاسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى

محمود أحمد غازى

قدمت هذه المقالة إلى الملتقى الرابع عشر للفكر الاسلامى المنعقد فى
الجزائر فى ٣١ أغسطس الى سبتمبر ١٩٨٠

إن موضوع التربية والتعليم فى البلاد الاسلامية لموضوع خطير ذو
أهمية قصوى ولا ينكر أهميته لانجاح أية حركة تهدف إلى النهوض
بالمسلمين وبعثهم من جديد على أسس اسلامية خالصة . وتزداد أهمية هذا
الموضوع بالنسبة للمسلمين اليوم فانهم فى مستهل القرن الخامس عشر
الهجرى الذى أزمعوا على أن يجعلوه قرن النهضة الاسلامية والبعث
الاسلامى ، قرنا تتحقق فيه الثورة الاسلامية فى صورتها الحقيقية الكاملة ،
فمن المعلوم الواضح على كل ذى عقل وبصيرة أن التورات والانقلابات
لا تكفل بالنجاح التام إذا لم تكن عندها نظام فكرى وعقلى يؤيدها ويدعمها
من الداخل . وتؤيد هذا الراى شواهد تاريخية كثيرة لسنا نحن بصدد ذكرها
هنا ، فان ذلك يطول به الكلام .

ومملا يختلف فيه اثنان أن الجهود الكبيرة التى بذلها المسلمون
خلال القرنين الفائتين - أى خلال عهد الاستعمار الغربى - لتصميم نظام
التعليم والتربية الذى يجمع بين الاصاله الاسلامية الخالصة وبين التجديد
الذى يتمشى مع روح العصر ويقوم بمتطلبات العصر الحديث باءت بالفشل

إلى حد كبير فالعالم الاسلامى جربَ نظما تعليمية عديدة فى أوقات مختلفة ولكن كانت بعض هذه النظم تقليداً محضاً للنظام الاستعمارى الذى جاء بويلاته التى نشاهدها ونذوق طعمها المر اليوم . وكان بعضها استمراراً للنظام التقليدى القديم الذى لم يعد صالحاً للامة الاسلامية والذى كان سبباً فى تخلفنا العلمى والفكرى وهزيمتنا فى معترك الفكر والعلم . وكان بعضها نموذجاً لخليط غير سليم ومزيج فاسد من العناصر المتضادة المتخالفة والذى لم يزد الطين الا بلة ولم يضيف إلى فكرنا وثقافتنا سوى الفوضى والفساد ، إلا من عصم ربك، وقليل ما هم .

فالقضية عندنا ليست قضية بعث نظام قديم ولا استعارة نظام من النظم الأجنبية ، بل القضية هى على العكس من ذلك تماماً : هى قضية تأسيس نظام تعليمى ثقافى اسلامى جديد على أسس إسلامية خالصة وفق روح العصر ومتطلبات العالم الاسلامى ومقتضياته فى القرن الخامس عشر الهجرى . فالقضية قضية هدم ما عندنا من النظم القديمة أو الحديثة (هدما تاماً أو جزئياً فى مراحل متطورة وفق ظروف كل شعب من الشعوب الاسلامية) ثم تمييز الصحيح من السقيم والسليم من الفاسد بين انقاضها وحطامها ثم تجديد البناء من هذه الاجزاء الصحيحة السليمة الصالحة لهذا العصر على خطوط اسلامية خالصة وأصيلة ، ونبذ مابقى من الأجزاء السقيمة الفاسدة .

ولكن يجب للبداية فى هذا العمل الجبار أن نثور قبل كل شيء على امامة أوروبا (وليست امريكا الا امتداد واستمرار فكرى وسياسى وثقافى وحضارى لأوروبا) الفكرية والثقافية ونرفض الاستسلام أمام زحفها الحضارى والفكرى كما قمنا بثورة بطولية على امامتها السياسية والعسكرية ورفضنا الاستسلام أمام قواتها المادية واستعمارها التوسعى . وانى الآن من حسن الحظ والتوفيق فى منطقة اسلامية سجلت أروع آيات البطولة والتضحيات على هام التاريخ لأنها رفضت أن تستسلم أمام زعامة

أوربا السياسية وتفوقها العسكري . افليس من الطبيعي أن نتوقع أن تقوم هذه المنطقة بين مناطقنا الاسلامية فى ثورتها على زعامة الغرب الفكرية والثقافية ؟

وتأتى بعد هذا الرفض مرحلة الهدم والبناء . ونعنى بمرحلة الهدم رفض العلوم والثقافة الغربية كلها كما هى كأساس لنظام التربية والتعليم عندنا واعتبارها كالمواد الخام على حد قول الاستاذ أبى الحسن الندوى، نأخذ منها ماصفا وندع منها ماكدر . ويمكن أن نسمى هذه العملية عملية نقد العلوم الغربية ثم تأتى مرحلة تجديدها على أسس صحيحة صالحة توافق فكرنا الاسلامى و فلسفتنا الاسلامية و نظام حياتنا الاسلامى و علومنا الاسلامية . واليكم تفاصيل موجزة لهذه العملية الجبارة .

نقد العلوم الغربية :

قبل أن ندخل فى صلب الموضوع وتكلم عن نقد العلوم الغربية ينبغى أن نقف قليلا ونتساءل : ماهى العلوم ؟ ونجيب على هذا التساؤل ونقول : العلوم سواء كانت اجتماعية أو إنسانية أو طبيعية أو ماوراء الطبيعية هى عبارة عن مجموعة معلومات ونظريات وقواعد فى مجال من المجالات العلمية أو الفكرية ، وترتب هذه المجموعة بحيث تفيد الدارس فى الوصول الى هذه المعلومات والمصطلحات التى تسهل فهم هذه المعلومات والنظريات . ويرتب كل عالم من هذه العلوم وكل خبير من خبرائها هذه المعلومات وهذه النظريات ترتيبا يوافق آراه ويلأم طبيعته ويطابق بيئته الاجتماعية ويستخرج منها نتائج تتمشى مع روح فكره وتؤيد عمود آرائه . نأخذ العلوم الاجتماعية كمثال . فهذه العلوم كالتاريخ والفكر السياسى والاقتصاد والقانون وغير ذلك درستها جميع الأمم . ولكن استنتجت كل أمة مما درسته من العلوم نتائج تختلف تماما عما وصلت اليها الأمم الأخرى . وأقامت كل أمة حضارتها وثقافتها على أساس هذه النتائج ورتبت بها نظام حياتها .

وهذا أمر فى منتهى الوضوح ، فلا يخفى عن من له أدنى اهتمام بالشئون التعليمية أن العلوم كلها سواء كانت اجتماعية أو طبيعية ، فكرية أو تطبيقية لها روح وضمير وقلب و قالب . وشأنها فى هذا الصدد شأن الكائن الحى الذى له روحه وضميره وقلبه وقالبه وذاكرته الخاصة وماضيه الخاص وخلفيته الخاصة التى تميزه من غيره . فروح العلم هى الفكر الذى يسرى فيه ويتشرب منه ذلك العلم الخاص ، وضميره هى الفلسفة التى تسبق معتقداته العامة وكلياته ومعلوماته ، وقلبه هو باطن ذلك العلم العام ، وقالبه هو الظاهر منه من تدوينه ولفظه وصيغته وأسلوبه فى البيان والأداء ، وكذلك الذاكرة والماضى والخلفية . ومن المستحيل جداً سحب هذه الروح والضمير من العلوم وتجريدها من قلبها وتفريغها من قالبها وقطعها من ذكراتها وماضيتها وخلفيتها اللهم الا بعد اجراء عملية جبارة تغيرها قلبا وقالباً وتجعل منها غيرها كأنها شىء جديد ، بل بعد هدمها كلها أساساً لاستعمال المواد المنهدمة فى تعمير جديد وبناء حديث .

نأخذ الآن مثال العلوم والأداب الاوربية الحديثة السائدة فى جميع العالم أو على الاقل فى أكثر بلاد العالم . فنراها كلها مصبغة بالصبغة العلمانية الاوربية الخاصة ومتشعبة بروحها الاستعمارية ومصبغة بصبغتها الالحادية ومقلوبة بقالبها المسيحى المنحرف .

أنظر علومهم الطبيعية الحديثة التى يقولون عنها أنها تدخل فى نطاق الحس والتجربة ، وفى الظاهر لاصلة لها بالدين وبالحقائق التى يبحث عنها الدين وتعالجها الشريعة وميادنها يختلف ميدان الدين ونطاقها خارج عن نطاق الوحى والالهام . ولكن مع هذه الدعاوى كلها تختلف الحقيقة عنها تمام الاختلاف . وتصارع العلوم الطبيعية بلسان الحال ما تدل عليه العلوم الاجتماعية ضمناً بلسان القال عن براءتها من الدين وعن وجود خالق بارى للكون والمظاهر الطبيعية التى هى موضوع بحثها ونقاشها. ويبدو كأن هذه العلوم القريبة تنفر من الهداية

الالهية والوحى الربانى نفور الحيوان الوحشى من الانسانية .
والاساس المزعوم التى ترتبت عليه العلوم الطبيعية الغربية ودونت
عليه هو أن العلم ما نعرفه ونعلمه بواسطة الحواس البشرية ، وما سواه
جهل مطلق ، فكل غير محسوس غير موجود حتى نعلم وجوده علما قطعيا
باحدى حواسنا الخمسة . ولاشك أن هذا الأساس المزعوم يبدو فى
الظاهر أمر معقول يتفق معه كل أنسان مثقف ذو عقل وبصيرة . ولكننا لو
قبلنا هذه القاعدة كأساس علمى معترف به لأبطلنا ثلثى الدين بل أكثر منه .
اذ لا يبقى أساس من أسس الدين الا هدمناه ولا قاعدة من قواعد
الشريعة الا الفيناها . فان الوحى والنبوة والرسالة والتوحيد والمعاد والبعث
بعد الموت والحساب والجزاء والصراط والجنة والنار وحتى وجود الخالق
البارى وملائكته وكتبه وما اليها من حقائق الدين كلها خارجة عن نطاق
الحواس الخمسة ، وأساسها على الوحى والالهام والايمان بالغيب فقط ولا
أساس لها غيره . وذلك لان شرف الامامة والزعامة فى العلوم الطبيعية
التجريبية والتكنولوجيا كان ولا يزال فى أيدي أولئك الذين يدعون أنهم
مؤمنون بعدم وجود الخالق ، ويرون أن الكون ظهر الى حيز الوجود بدون
أى قوة محرركة من الخارج وتطور الى الحالة التى هو عليها الآن بنفسه
وتلقائيا بدون أى طاقة تطوره أو تهيمن على تطوره ، فصاغوا هذه العلوم
بصيغتها الفاسدة وجعلوها تؤدي قرأها الى ما ذهب اليه صانعوها ومدونوها
من انكار الخالق والالحاد أو النزعة العلمانية على الاقل اذا كان فيهم من
امن بدين تمذهب بمذهب أو اتحل نحلة .

ولا تسئل عن العلوم الاجتماعية والعمرائية ، فانها لا تقل شائنا فى
هذا الصدد عن اخواتها من العلوم الطبيعية . فكل واحد من هذه العلوم له
روحها الخاصة وطبيعتها الخاصة . ولعبت فى تكوين هذه الطبيعة وخلق
هذه الروح عوامل وبواعث كثيرة ترجع اصلها وبدايتها فى تاريخ اوربا
القديم . فانثرت تقاليد أوربا التاريخية والخلفية الدينية الخاصة والمثل

الغربية الحضارية والبيئة الأوربية الثقافية وما اليها تأثيرا عميقا جذريا فى تكوين عقلية هذه العلوم وطبيعتها وروحها .

ولا تختلف حالة الألسنة واللغات وكيفيتها عن حالة العلوم . فكما أن افكار أمة وأرائها ودينها وحضارتها وثقافتها تتجلى فى علومها فكذلك تتسرب هذه الاشياء فى لغتها وآدابها . ولم نر لفة أمة من الأمم وآدابها الا متشربة بمثلها الخاصة وتقاليدها الدينية والاجتماعية وحضارتها وثقافتها .

أنظر اللغة العربية القديمة والادب العربى الجاهلى . تتجلى فيها الصفات والمثل والتقاليد الجاهلية كما تتجلى صورة الناظر فى المرآة . ولذلك قيل: الشعر ديوان العرب . وهذا الامر ليس بخاص بالعرب فقط ، فكل أمة ديوانها شعرها وتتجلى أرائها وثقافتها وحضارتها فى آدابها ولغتها . خذ مثلا اللغة والآداب الانكليزية . تتجلى فى كلماتها وتراكيبها الأدبية وأساليبها الشعرية واستعاراتها وتشبيهاتها طبيعة الامة الانكليزية ومزاجها الاجتماعى الخاص . وتتصف لغتهم وآدابهم بنفس الصفات والخصائص التى تتصف بها الامة الانكليزية . فكما أن السادية والدبلوماسية الماكرة من خصائص الامة الانكليزية وصفاتها فكذلك نرى اللغة والآداب الانكليزية متصفة بهذه الصفات والخصائص . وخذ مثلا اللغتين الهندية والسنسكريتية من بين اللغات الشرقية ، تسربت فيها الاراء والافكار الهندوكية الدينية واساطيرهم وخرافاتهم . وهاتان اللغتان متشربتان ومتشبعتان بالفكر الدينى والفلسفى الهندوكى بحيث أنه لا يمكن الفرق بينهما وتمييز أحدهما عن الآخر . فان هاتين اللغتين تربتا واغذتا بغذاء الأساطير والخرافات الهندوكية .

وأنظر على العكس من ذلك العلوم الاجتماعية والطبيعية التى انشأها المسلمون ، تتجلى فيها الطبيعة الاسلامية والمزاج الاسلامى وتتمثل فيها المثل الاسلامية العليا ، ويرى القارى بين كتبها وصفحاتها

بل وبين أسطرها خصائص الثقافة الاسلامية والتمدن الاسلامى والحضارة الاسلامية . ولا تضرب لذلك مثلا عن العلوم الاجتماعية والفكرية التى تأسست على أسس ومبادئ استمدتها المسلمون من القرآن والسنة ، وهى اسلامية بحتة من حيث الروح والجسد والقلب والقالب والمحتوى والضمير . ولكننا تضرب لذلك مثلا عن العلوم الطبيعية والتجريبية التى أنشأها ورقاها المسلمون . فكلها مصبغة بالصيغة الاسلامية الخالصة ومطبعة بالطابع الاسلامى الواضح الجلى وتتجلى فيها الروح الاسلامية الطاهرة التى تهدى القارئ الى سواء السبيل .

وان شئت فخذ أى كتاب اردت من المنطق أو الرياضات أو الكيمياء أو الطبيعيات أو من أى علم من العلوم الطبيعية والتجريبية ألفه عالم من علماء المسلمين فى العهود الاسلامية الزاهرة تجد فى صفحاته وبين أسطره وفى مضمونه ومحتواه روحا اسلامية تهديك الى الموضوع هداية اسلامية كما فهما وهضمها المؤلف . فاذا كان مثلا كتابا فى علم الطبيعة يبدأ بالبسملة والحمد لله رب العالمين ثم الصلاة والسلام على رسوله الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين ، ثم يأتى المؤلف فيه بالصفات الالهية التى تشير الى قدرة الله وربوبيته وكونه رزاق الكون وبارئه وخالقه ، ثم ياتى بالآيات القرآنية المباركة التى تلفت النظر الى مظاهر الكون وتحث القارى والسامع على التفكير والتدبر فى الكون ومظاهر الخلق وما اليها . ثم تستمر هذه الروح الاسلامية تهدى القارئ الى الصراط القويم فى كل مرحلة من مراحل الكتاب ، وهكذا فتجد فى أبواب الكتاب المختلفة وفصوله ومباحثه آيات واحاديث تعنى بالموضوع أو لها صلة به .

ونرى هذا الاسلوب فى كل كتاب وفى كل علم ، حتى نراه فى كتب القصص والحكايات والحب والغرام وحتى فى علم الجنس والسكولوجيا . ومن أراد فليراجع الى أى كتاب شاء من كتب هذه الموضوعات . فمثلا كتاب ألف ليلة وليلة وكتاب طوق الحمامة المنسوب الى ابن قيم وكتاب

ضياء الابصار فى حُد الباه للطبيب الاسلامى الحكيم محمود خان كلها
تؤيد ما قلناه.

وليست العلوم فقط ، بل هكذا الحال فى المؤسسات والأنظمة
والادارات والهيئات ، فلا تخلو مؤسسة من المؤسسات أو إدارة من
الادارات أو نظام من الأنظمة أو هيئة من الهيئات عن عقيدة مؤسسيتها
وعقلية مؤلفيتها وواضعيتها . وتسرى هذه العقيدة والعقلية فى تلك
المؤسسة أو النظام سريان الروح والدم فى الجسد ، نأخذ لذلك مثال دار
العلوم الاسلامية بديوبند - الهند- المؤسسة التعليمية التى أنشأها مولانا
محمد قاسم النانوتوى و مرعلى انشاءها أكثر من قرن (حوالى مائة سنة
وربع قرن) ، ولكن عقيدة المؤسس الجليل وعقليته تتجلى حتى الآن فى
هذه المؤسسة ، ويشم الزائر رائحة هذه العقلية ويشعر بنكهة هذه النفسية
حتى فى جدران دار العلوم ومبانيها وحيطانها ، وكذلك جامعة على كره
تسرى فيها روح السير سيد احمد خان وعقليته سريان الروح فى الجسد
وتجرى فيها أراءه وافكاره ونزعاته مجرى الدم فى عروق الانسان ،
وجامعة ندوة العلماء تسرى فيها ارواح مولانا محمد على المونكىرى
ومولانا شبلى النعمانى وزملائهما ، وهلم جرآ . ولا يمكن ان تسحب هذه
الارواح وهذه النفسيات من هذه المؤسسات والمعاهد . هذه حال
المؤسسات والادارات ، فما ظن القارى الكريم فى شان العلوم والافكار
والفلسفات التى تستمد غذاءها وروحها من أرواح واضعيتها وعقليتها
مؤسسيتها ونفسيات مؤلفيتها .

وهذا النظام التعليمى الذى طبقه الاستعمار الغربى فى العالم
الاسلامى والذى لم نرثه منه فحسب بل ننفق الملايين والمليارات ونستنفد
امكانياتنا المعنوية و المادية فى تطويره وتدعيمه فى بلادنا الاسلامية هو
نظام استعمارى بحت ، وطبقه الاستعمار لمجرد اهدافه الاستعمارية . ومن
المناسب أن نشير الى ما تكهن به من نتائج استعمارية واهداف استغلالية

لتطبيق هذا النظام أحد مدونه الكبار فى الهند الاسلامية . فقد كتب الكاتب والمفكر التعليمى الانكليزى الشهير اللورد ميكالى فى تقريره الذى قدمه الى الحكومة البريطانية فى عام ١٨٣٥م بصفته رئيسا للجنة التعليمية :

«يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية فى اللون والدم وانجليزية فى الذوق والرأى واللغة والتفكير» . (١)

وما أصدق هذا الطاغوت التعليمى الاستعمارى السنا نحن اليوم متفرنجين أو متفرنسين أو متمركنين فى الذوق والرأى واللغة والتفكير ؟ السنا وخاصة الطبقة المثقفة ،،المتنورة « منا بقينا مسلمين فى اللون والدم والاختتان فقط ؟ فلنقف هنا قليلا ونساءل : ماذا انفقنا على انجاح هذا النظام خلال القرنين الماضيين الذين قضينا هما فى عهد الاستعمار وعهد ما بعد الاستعمار من أموال وامكانيات وصلاحيات ؟ وما الذى احرزنا وربحنا وكسبنا بعد تحمل هذه النفقات والتكاليف كلها ؟ ونجيب على هذا السؤال ونقول : انفقنا المليارات من الدولارات والجنيهات والريالات فى مشارق الارض ومغاربها من جزيرة تيمور شرقا الى مدينة داكار غربا وضحينا باجيال متتابعة من شبابنا المؤمن على مذبح الكنيسة الغربية وفدينا بعقود آلاف من المفكرين ومثاق من النوايع من أبناء العالم الاسلامى وقضينا أعمارنا فى تطبيق هذا النظام بحذاقيره وانجاحه منذ قرنين أو قرن ونصف . . . هذا بعض ما انفقنا . وأما ماكسبنا وربحنا بعد هذه النفقات الطائلة فجماعة من المثقفين المتنورين الذين تنفقوا بالثقافة الالحادية وطائفة من المفكرين الذين يفكرون بالفكر الاوربى المنحرف النائرعلى الوحي والديانات والاجيال الضائعة الحائرة على مفترق الطريق ، الا من عصم ربك وقليل ما هم .

إن مسألة التعليم وتربية الاجيال وتنشئة الشباب من كبريات المسائل

التي تعنى بها الدول العقائدية (الايديولوجية) وتوليها اهتمامها البالغ لان الامم و الدول التي تقوم على اساس عقيدة و مبدأ وايديولوجى هي خاصة في طبيعتها ومزاجها ووضعها ، فتخضع نظام فكرها وتعليمها وتربيتها لهذه العقيدة وهذا المبدأ ، وتكون تعليمها وتشكل نظام تربيتها بحيث يكون اداة ووسيلة لتنشئة الاجيال التي لا تؤمن بعقيدتها وفكرها فحسب بل تدافع عنها وتتفانى في سبيلها وتقوم بنشرها وبشها في انحاء العالم . وأريد أن أذكر القراء الكرام بما قام به الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي من تكوين نظام تعليمهم وتربيتهم على أساس الفكر الماركسي اللينيني . والجدير بالذكر ان لجامعة موسكو ثلاث أهداف تنص اثنان منها على كلمة : الفكرة الماركسية اللينينية أى Marxist - Leninist Doctrine ومن المضحكات المبكيات أن الذين يؤمنون بانتن انواع الكفر لا يستحيون بمصارحتهم بالكفر ونحن المسلمون نستحي بمصارحتنا بالاسلام واجهارنا بالحق .

ولم يكتف الشيوعيون بتوجيه نظام تعليمهم وجهة شيوعية خالصة وتامة ، بل قام علمائهم بتدوين العلوم تدوينا جديدا يتفق مع فكرهم الشيوعى ، وصاغوا العلوم كلها وخاصة الاقتصاد والفكر السياسى والقانون والفلسفة وما اليها من العلوم بصيغة شيوعية جديدة تتناغم مع الفلسفة البرولتارية . فالعلوم عندهم الآن كلها مقلوبة تماما ، قلبا وقالبا ، ومتشربة بالفكر الشيوعى الالحادى .

فليت شعري ما الذى يمنعنا عن هذا العمل ؟ وما يعوقنا عن تدوين العلوم على أساس الفكر الاسلامى وتطهيرها فى ضوء الشريعة الاسلامية ؟ فاننا أكمل فكراً من الشيوعيين وأصلح نظاما وأتم قانونا منهم ، وديننا خاتم الأديان وكتابتنا خاتم الكتب وشريعتنا المطهرة هي السمحة السهلة البيضاء الغراء التي ليلها كنهارها ، ونؤمن بكتاب خالد عربى مبين ، لأناته الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ألسنا

أقدر وأقدر بهذا العمل من الشيوعيين ؟ ألسنا قادرين على انجازه على أحسن منوال وأندر أسلوب ؟ ولا يسعنا المقام أن نضرب لتدوينهم أمثلة من كتبهم ، ومن أراء أن يعرف أسلوبهم في التدوين (وفى الحقيقة التحريف) فليراجع الى أى كتاب شاء من الكتب المطبوعة فى روسيا .

فلا بأس فى أن نستفيد من تجارب الامم الشيوعية فى مسألة تجديد العلوم الاجتماعية والانسانية والتطبيقية بدون أى تأمل أو تردد . فانهم رفضوا جميع العلوم الموجودة من قبل الثورة الشيوعية وسموها بالعلوم البورجوازية . فكل غير شيوعى عندهم بورجوازى . وكذلك الفكر الذى يخالف الشيوعية يسمونه الفكر البورجوازى والعلم الذى لا يوافق آراءهم هو العلم البورجوازى . وكل ما هو بورجوازى فهم مردود ومرفوض لا يفيد فى شأن . حتى العلم الطبيعى التطبيقى الذى هو علم مادي بحت ويعتقد كثير من المسلمين المشققين انه لاصلة له بالفكر والدين قسمه الشيوعيون الى قسمين : العلم الشيوعى والعلم البورجوازى فالعلم الشيوعى عندهم هو الذى يحتم بانكار خالق الكون ورفض الاديان والمعتقدات الدينية ، والعلم البورجوازى هو العلم الذى يتردد فى المصارحة بهذا الانكار البحت والرفض القطعى . وكذلك غيروا تاريخ العالم كله . وقام المؤرخون الشيوعيون بالتدوين الجديد للتاريخ البشرى بما فيه التاريخ الاسلامى والسيرة النبوية الشريفة تدوينا جديدا وفق التعبير المادى الشيوعى للتاريخ ونرى امثال هذا التدوين المحرف فى جميع الكتب التى تطبع وتنتشر فى البلاد الشيوعية وخاصة فى روسيا وتوزع مجانا أو بالتمن الزهيد فى البلاد الاسلامية . . .

ويجدد بنا فى هذا المقام أن نلفت نظر القارىء الى ماقاله أحدائمة التربية والتعليم فى البلاد السوفيتية عن الفرق الواضح الجلى الذى يضعه الشيوعيون بين العلم الروسى وبين العلم الاوروبى العام . يقول عالم طبيعى من كبار علماء السوفيت م - س - كوفرن (M. C. Govern) :

«إن العلم الروسى ليس قسما من أقسام العلم العالمى . انه قسم منفصل قائم بذاته ، يختلف عن سائر الاقسام كل الاختلاف . فان سمة العلم السوفيتى الاساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة . إن التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة الى أساس وان أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التى قدمها ماركس وانجلس ولينين واستالين . انا نريد أن نخوض - وفى ايدينا هذه الفلسفة - فى معترك العلم الطبيعى ونصارع جميع التصورات الاجنبية التى تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة (٢) .

وليست الدول الشيوعية فحسب، بل رفضت الدول الأسيوية الأخرى ايضا أن تطبق هذا النظام الفكرى التعليمى الغربى والاستعمارى بكامله وتتخذة المقياس الحقيقى والمعياري الوحيد لنشر العلم والثقافة . فقد رفضه اليابان البوذى وألح أن يكون هذا النظام مصطبغا بصغته البوذية بقدر ما أمكن ومطبعا بطابع الحضارة البوذية القديمة وتتجلى فيه فلسفتهم القديمة البوذية التى يؤمن بها اليابانيون . وكذلك رفضت الهند البرهمية بعد استقلالها من البريطانيين اختيار هذا النظام بحذافيره بل غيرته الى حد كبير وجعلته متمشيا مع مصالحها البرهمية وخاضعا لفكرتها الهندوكية .

فيجب قبل كل شىء ان نرفض امامه الغرب الفكرية وقداسته العلمية بل نكفر بامامته وقداسته ، فقد امرنا أن نكفر بالطاغوت لان الكفر بالطاغوت من شرائط الايمان ويدخل فيه الكفر بالطاغوت الغربى الاوربى والطاغوت الشرقى الشيوعى . وبعد ذلك تاتى مرحلة الايمان بالله والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وبعد هذا الايمان الكامل المركب من النفى والاثبات تاتى مرحلة تعلم القرآن ، كما قال سيدنا ابن عباس : تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن . وتعلم القرآن يشتمل على التعمق فى روحه والتذوق بذوقه والتصبغ بصبغته والانطباع بطابعه . وبعد أن تعلمنا الايمان والقرآن فسوف نتمكن من التهافت على فلاسفة هذا العصر

وتزد على مناطق الوقت ونسد الطريق في وجه السيل الالهادى الجارف الذى يكاد يذهب بالاذهان والعقليات المعاصرة ، لابل ذهبت بها واختطفها فعلا .

ولا يعنى رفض امامة الغرب الفكرية وقداسته العلمية عدم الاعتراف برقيه العلمى وعض النظر عن نهضته الفنية والتقنية والصناعية ولا يعنى ايضا سد طريق المسلمين نحو الرقى العلمى والفنى ، فليس بين الرقى الفنى المادى وبين الرقى الدينى الروحى أى تعارض . ومن الممكن بل الاحسن والانسب أن يكون المسلم راقيا من كلتا الناحيتين المادية والروحية . فان الاسلام استحسنت اجتماع الرقى الروحى الدين بالرقى الفنى المادى . واستحسن القرآن الكريم بساطة العلم وبساطة الجسم معا وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم القوى على السلم الضعيف .

تطهير الفكر الحديث

يروى أن رسول الله ﷺ قال : لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها . وهذه القاعدة الكلية والهداية العامة الشاملة تشمل جميع نواحي الاصلاح والتصحيح بما فيها النواحي العلمية والفكرية والثقافية . فنحتاج لاصلاح هذه الامة ونهضتها الفكرية والثقافية ولتصحيحها العلمى والتربوى والحضارى الى احياء نفس الروح الانتفادية العلمية التى جعلت اجدادنا العلماء مهيمين على العلوم التى اخذوها من الأمم الاخرى ، فانهم لم يتعصبوا فى أخذ العلم والحكمة من أى أحد ولكنهم لم يقلدوا أحدا تقليدا أعمى ، بل عاملوا مع كل واحد معاملة الجوهري الخير الذى يحك كل شىء ياتى اليه من المعادن والاحجار على محكه ويميز طيبه من خبيثه وصحيحه من سقيمه وسليمه من فاسده ، ياخدمه ما صفا ويدع ما كدر ولكن ، كما قلنا ، يجب قبل هذا التمسك والتطهير أن نرفض أو لا قيادة الغرب الفكرية ونحطم امامته العلمية والحضارية ونثبت بالدلائل

القوية القويمة والبراهين القاطعة أن انظمة الفكر والعمل التي دونها الغرب كلها فاسدة باطلة . ولاشك أن لهذا الامر أهمية قصوى لحريرتنا الفكرية والحفاظ على كياننا الثقافى ووجودنا الحضارى ، وقد مر على استقلال العالم الاسلامى وحريره السياسية اكثر من ثلث قرن ولكننا اليوم أكثر عبودية من الامس من حيث الفكر والثقافة . ونعتبر اليوم كلمة الغرب مترادفة بالقداسة والعصمة ونسبة الشىء الى الغرب تكفى عندنا معيارا كافيا للحق والصداقة . فالمحك عندنا هو الغرب وليست مثلنا الاسلامية العليا .

فاذا اراد المسلمون اليوم أن يتحرروا من الاستعمار الفكرى والثقافى والحضارى الغربى فاهم خطوة فى هذا الاتجاه هى القيام باحياء الحضارة الاسلامية والبعث الجديد للثقافة الاسلامية . ولا يمكن ذلك ابدًا الا بتجديد العلوم والفنون والاداب والثقافة المعاصرة التى ورثوها من الاستعمار وتدوينها على أسس اسلامية خالصة وتكوينها تكوينا جديدا صالحا وفق روح الشريعة الاسلامية وقلبها كلها قلبا وقالبا . واقول مرة أخرى أن هذا التجديد والتدوين لا يمكن الا بعد أن نرفض المبدأ الذى جعلناه نصب أعيننا بالقصد أو بدون قصد : الاكمل والافضل هو الاقرب من الغرب والانقص هو الابعد . ولا بد من أن يكون هذا الرفض رفضا باتا وشعوريا وعمديا وتبراً من هذا المبدأ كما نتبراً من الكفر ونكرهه كما يكره المؤمن الكفر بعد الايمان و كما يكره ان يلقى فى النار .

ويجب ان نكون على حد قول شاعر الاسلام حكيم الشرق العلامة محمد اقبال مؤمنين بانفسنا كافرين بالافرنج . فالكفر بقداسة الغرب وانكار كونه معيار الصدق والصلاح هى الخطوة الاولى والخطوة الوحيدة التى توصلنا الى تجديد العلوم والآداب، فبعد تجديد الايمان بصدق فكرنا الاسلامى وصلاحيه شريعتنا الاسلامية الغراء والكفر بالفكر الغربى العلمانى والفكر الشيوعى الالحادى تتمكن من احياء المناهل الفكرية الاسلامية التى تبدو كأنها جفت وذبلت بعد سيطرة الغرب الحضارية

والفكرية والعلمية، فبعد أن احينا هذه المناهل نصبح علومنا الاسلامية وادبنا الاسلامى ذات حيوية وفعالية وتنطلق من حيث وقفت وجفت . وهذا الامر (أى تجديد العلوم وتدوينها على أسس اسلامية) أمر ذو أهمية بالغة ، وهذه الاهمية القصوى ليست مزعومة ولا وهمية . فانها المسئلة الكبرى للعالم الاسلامى . وهذا العمل يحتاج الى حركة علمية فكرية واسعة المدى متواصلة العمل . وليس البحث الاسلامى الا وسيلة لهذه الحركة العلمية الفكرية . وهذه العملية - عملية تطهير العلوم ثم تجديدها - عملية متواصلة لا تنتهى ولا تكتمل فى يوم من الايام بل تستمر مع مر الدهور وكر العصور . فان العلم شىء دائم التطور ويستمر الفكر الانسانى وعقله فى اكتشافه لحقائق الكون وتطويره للعلوم بمساعدة المعلومات والاكتشافات التى تحصل له خلال البحوث والمشاهدات . فاذا لم نقدر ونقيم ونتقد هذه العلوم الدائمة التطور فى كل مرحلة من مراحل تطورها ينشامنه اختلال وتباين بين مثلنا الحضارية وعلومنا الاجتماعية و يصبح المجتمع عرضة للاختلال الفكرى والثقافى والحضارى . وكان المغفور له العلامة محمد اقبال بقدر أهمية هذه العملية كل التقدير حيث قال :

«إن واجبنا نحن هو أن نراقب تطور الفكر البشرى بكل يقظة وانتباه ونحتفظ بوجهة نظر حرة انتقادية تجاه هذا التطور» (٣) .

وقصارى القول أننا نحتاج الى موقف ثورى فى الفكر وفى كل نواحي الحياة . فان موقف التوفيق والتسوية لا يغنى من شىء لأن الانقلابات والتغييرات فى عالم الفكر والاجتماع والسياسة انما تحدثها مواقف ثورية بطولية ولا تحدثها قط موقف توفيقى وموقف التسوية والتطبيق بين الحق والضلال ، فان هذه المواقف التوفيقية تودى الى استسلام ثم الى انهيار . ومن ليس فيه جرأة التقدم والهجوم فى معترك الحياة فالأفضل له أن ينزل عن المعركة ويلجأ الى بيته ينتظر المصير .

فان المحافظة على الوجود والكرامة فى ميدان الحرب لا يمكن الا بالتقدم والهجوم . وأما المستسلم المتردد أفكتبت له الهزيمة والموت . فليكن شعارنا فى القرن الخامس عشر : التقدم والهجوم ولا الاستسلام والتوفيق .

فاذا كان هذا كله وأصبحت العلوم الاجتماعية والانسانية كلها مدونة من وجهة نظر الاسلام وعلى أسس من تعاليم القرآن الكريم فلا يبقى ولن يبق أى فرق أو تعارض بين العلوم وبين القرآن الكريم وتكون هناك وحدة علمية بين القرآن والثقافة الاسلامية المعاصرة وبين القرآن والحضارة الحديثة وبين القرآن وعلومنا الاجتماعية والانسانية ، وتكون دراسة كل علم مفيدة فى فهم القرآن والتعمق فيه، وتكون دراسة القرآن مفيدة فى فهم العلوم والتعمق فيها ، ومن هنالك تنشأ عقلية اسلامية قحة و تفكير اسلامى خالص .

وأما العلوم التى ينبغى أن نعطيها الاولوية فى عملية النقد والتطهير والتجديد فهى فى رأى المتواضع كما يلى :

- ١ - الفلسفة الغربية الحديثة مع جميع فروعها .
- ٢ - العلم الطبيعى مع جميع فروعها .
- ٣ - فلسفة التعليم والتربية .
- ٤ - الفكر السياسى .
- ٥ - القانون والدستور .
- ٦ - علم النفس .
- ٧ - علم الاجتماع .
- ٨ - الاقتصاد وما اليه .
- ٩ - علم الانسان (الانثرو بولوجيا) .
- ١٠ - فلسفة الآداب والنقد الادبى .

ومع اننا اشرنا الى تأثير الفكر الالحادى الغربى فى تطور العلوم الطبيعية التطبيقية وتقسيم الشيعيين علمهم الى قسمين العلم الشيعى

والعلم البيورجوازي ولكن مع ذلك قد يزعم بعض القراء وكما يعتقد كثير من المثقفين عندنا في العالم الاسلامي أن العلوم الطبيعية والتطبيقية من الكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات والفلكيات وعلم طبقات الارض والهندسة والطب وما اليها من العلوم التجريبية لاصلة لها بالدين ولا يمكن تفريقها الى ما هو مثلا الهندسة الاسلامية والهندسة الغير اسلامية والكيمياء الاسلامي او الكيمياء الغير اسلامي . وهذا الزعم الخاطيء ينشأ من النزعة العلمانية التي خلقه نظام التعليم الحديث الم غرب (بالعين المعجمة وتشديد الراء وفتحها) في اذهان الشباب الاسلامي وعقلياتهم . فنظام التعليم الم غرب لا يعترف بوجود خالق الكون ودوره في العلوم الطبيعية . مع أنها اذا كانت تدرس بالمنهج الاسلامي الصحيح وتعالج بالنظرة الاسلامية السليمة كانت سببا لتقوية الايمان وتدعيم اسسه في قلوب المتعلمين واذهانهم . ولا شك أن مجرد الحقائق العلمية من كون النار محرقة وكون الماء مركبا من الاكسوجين والهيدروجين ليست اسلامية أو غير اسلامية في حد ذاتها . ولكن تدوين هذه المعلومات في صورة علم متكامل مدون واستنتاج النتائج العلمية المجهولة منها والبحث عن القواعد الكلية والفلسفة التي تسرى في هذه المعلومات والعوامل الخلفية التي جعلتها كما هي فهذه الاشياء منها ما هو اسلامي وما هو غير اسلامي . وينبغي ان تكون عملية تطهير هذه العلوم ثم تدوينها من جديد في مراحل متطورة فللدخول في المرحلة الأولى يجب أن نبدأ في الفور بادخال المواد الاسلامية المتعلقة في جميع العلوم الاجتماعية والانسانية التي تدرس في الجامعات ، ويجب أن لا تخلو مادة من المواد وموضوع من المواضيع من المحتوى الاسلامي المتعلق بالمادة أو الموضوع والأحسن أن تكون النسبة في البداية خمسين بالمائة . واذا لم يكن هذا من الممكن فما أمكن من النسبة ولكن بشرط أن لا تقل عن خمسة وعشرين بالمائة . وهذا يفيد الطالب والمدرّس في مقارنة العلوم الاسلامية

بالعلوم الاجتماعية والانسانية الحديثة من جانب ويؤهلهم لتطهير المحتوى الغير اسلامى فى هذه العلوم من جانب آخر . ولتكن فى كل جامعة وفى كل قسم دراسى من أقسام الجامعة لجنة مختصة بهذا الموضوع ، ولتكن من مهمة هذه اللجنة اعادة النظر فى المنهج المقرر كل سنة من هذه الوجة واستعراض الموضوع فى ضوء النتائج التى أحدثتها الدراسة كل سنة . ونقترح للبداية فى المرحلة الاولى من هذه العملية الكبيرة أن يعاد النظر فى المناهج المقررة للدراسات العليا فى ميادين الحقوق وعلم السياسة والاقتصاد والفلسفة .

وكان كاتب هذه السطور عضوا وسكرتيرا للجنة الخبراء التى اعدت المناهج والخطة لكلية الشريعة بجامعة القائد الأعظم باسلام آباد . فهى أول كلية على المستوى الجامعى العالى للدراسات الفقهية القانونية العليا التى سوف تقوم بالتدريس والاشراف على البحوث فى هذه الموضوعات على مستويات ماجستير و دكتوراه . فجعلنا النسبة بين محتوى الحقوق ومحتوى الفقه الاسلامى اربعين وستين . وكذلك كنت عضوا فى لجنة وضع المناهج للجامعة الاسلامية المقترح تأسيسها فى كشمير الحرة . وكنت اعددت لها منهجا دراسيا ووضعت النسبة بين محتوى العلوم الاسلامية وبين محتوى العلوم الاجتماعية نسبة ستين واربعين . ومما ترتاج اليه نفسى أن اعضاء اللجنة كلهم بادروا الى الموافقة على ما اقترحه كاتب هذه السطور و وافقت حكومة دولة كشمير الحرة أيضا على هذه المقترحات وقام رئيس دولة كشمير بافتتاح هذا المنهج فى حفلة خاصة انعقدت لهذا الغرض فى كشمير فى العاشر من يوليو ١٩٨٠م .

وختاما اريد أن انوه الى مرحلة حاسمة لا تقل اهمية عن التى ذكرتها فى المقالة . وهى مرحلة تدوين العلوم الاسلامية القديمة تدوينا جديدا على اسلوب عصرى حديث يوافق مقتضياتنا اليوم ويلبى حاجاتنا فى القرن الخامس عشر من الهجرة الذى نحن على وشك الدخول فيه . والعلوم

الاسلامية التي نحتاج الى تدوينها تدوينا جديدا وتجديدها وفق الحاجات
العصرية فهي في رأئي المتواضع كما يلي :

- ١ - التفسير وعلوم القرآن .
 - ٢ - الحديث وعلومه والسيرة النبوية .
 - ٣ - علم الكلام والفلسفة الاسلامية .
 - ٤ - الفقه الاسلامي وأصوله وفلسفة التشريع .
 - ٥ - الاقتصاد الاسلامي وعلم الاموال .
 - ٦ - السياسة الشرعية بما فيها الاحكام السلطانية والسير .
 - ٧ - التاريخ الاسلامي وفلسفة التاريخ .
- ولكن لا يمكن هذا مع الجمود والصلابة وانما يمكن بالروح
الانتقادية التقدمية التي يمكن أن نسميها الروح القرآنية الخالصة . فان
روح القرآن ليست الجمود والصلابة والركون والتقليد الاعمى بل هي
التقدم والنقد العلمي والفهم والعقل والتفكير والاجتهاد .
وهذا ما أردت أن اقول في هذا الموجز المرتجل . وما توفيقى الا
بالله عليه توكلت واليه أنيب .

المراجع

- (١) تاريخ التعليم لميجر باسو ، ص ٨٠ نقلا عن ابي الحسن علي الحسن الندوي : نحو التربية
الاسلامية الحرة ، طبع بيروت ، ١٩٦٩ م ص ٣٢ - ٣٣ .
- (٢) نقلا عن ابي الحسن علي الحسن الندوي : مصدر سابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .
- (٣) محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام (The Reconstruction
of Religious Thought in Islam) طبع لاهور في آخر المقدمة .

